تاريخ الكتب والمكاتب

الخطوط القديمة

كان الخط اليوناني القديم يكتب من اليمين الى الشمال كخطوط اللغات الشرقية السامية الاَّ انهُ ابدل منذ عهد سحيق بالكتابة من الشمال الى اليمين ومثل ذلك يقال في كتابة اللغة اللاتينية . وكان لليونان طريقة اخرى قديمة جدًّا وهي ان يبتدئ الكاتب من اليمين وعند انتهاء السطر في الشمال يبتدئ في السطر الثاني من الشمال الى اليمين وهكذا الى انتهاء الصفحة . وهذه الطريقة كانت معروفة عند القدماء باسم « بوستروفيدون » اي دورة البقرة تشبيهاً لها بسير البقرة بالمحراث في حرث الارض

واما الكتابة من اليمين الى الشمال فلم تزل مستعملة عند الامم الشرقية في العربية والعبرانية والسريانية والفارسية والتركية وكانت الفينيقية والمصرية القديمة والسمارية وغيرها من اللغات البائدة تكتب من اليمين الى الشمال ايضاً

واما الصينية واليابانية فسطورها عمودية يبدأ بكتابتها من الاعلى ولكن علامات الكتابة في السطور تبدأ من اليمين . واستعمل كتبة اللغة اللاتينية منذ القديم نوعين من الحروف يعرفان « بالماجسكول والمانسكول » فاستعملوا الاخير لكتابة اسماء الآلهة والملوك والقياصرة والابطال ثم قصروا استعمالهُ على الحروف الاولى من اسماء الاعلام وبداءة الجمل

وكانت الكلمات في الكتابات القديمة الشرقية والغربية تفصل بعضها عن بعض بفراغ او بنقطة وكذلك الجمل الى ان وضع اريستوفان الكاتب البيزنطي علامات الترقيم المستعملة في الكتابة اليونانية واللاتينية . وفصل القديس ايرونيموس في القرن الرابع المسيحي بين آيات التوراة بالارقام

وقد استعمل القدماء في كتاباتهم علامات اصطلاحية واختصارات يدل كل منها على كلمة او جملة يكثر استعمالها . ويقال ان العبرانيين اول من ابتدع هذه الاختصارات في كتاباتهم وحذا حذوهم اليونان والرومان . وكذلك جعلوا كل حرف بمثابة رقم يرمز الى عدد مخصوص كما في حساب الجمل بالعربية . الاَّ ان هذه الاصطلاحات والاختصارات امست مع مقضي الزمن سبباً للابهام في القوانين وتواريخ عقود البيع والشراء والاحكام حتى حظر

روماني في مكتبته منقولة عن رسم وجد في خرائب بياي

شارلمان مؤسس جامعة باريس وامامهُ درج

المقتطف صفحة ٥٢ مجلد ٤٦

يوستينيانوس امبراطور الروم في القسطنطينية على النساخ والكتاب استعمالها وامرهم بكتابة الكلمات والجمل بكاملة بحروف واضحة منعاً للابهام والتزوير وجعل قصاص من يخالف ذلك صارماً . الاَّ ان كثيرين من النساخ والكتاب القدماء ظلوا يستعملون هذه الاختصارات الى القرون الوسطى حتى امر الملك فيلبس الجميل بالاقلاع عنها سنة ١٣٤٠ وحظر استعمالها على القضاة والمحامين وكتبة الشرائع لانها صارت سبباً للابهام والاشكال في الكتابات

واستعمل الرومان نوعاً من الكتابة المختزلة كانوا يسمونهُ الكتابة النيرونية على اسم مخترعهِ نيرون عشيق شيشرون الخطيب الروماني وكان يختزل خطب مولاهُ عند ما كان يلقيها في مجلس الشيوخ . وقال لوكراس ان كسيفون كان يختزل خطب سقراط

وكان للقدماء طرق عديدة للكتابة السرية منها طريقة الكتابة بالحبر الذي لا يظهر الاَّ اذا عرض للنور ومنها طريقة استعملها اللقدموتيون وهي ان تكتب الرسالة السرية على طرفي ورقتين بحيث يكون بعض كل كلمة على الورقة الواحدة وبعضها الآخر على الاخرى وعند ما تصل الى الشخص الموجهة اليهِ يأخذ اسطوانة مخصوصة متفق على حجمها ويلف الورقتين عليها ويقرأ الكتابة

وقد روي ان داريوس ملك الفرس اراد ان يبعث برسالة سرية الى احد قوادهِ فاختار عبداً من عبيدهِ وامر ان تكتب الرسالة على جلدة رأسهِ بعد حلق الشعر عنها ثم حجزهُ مدة حتى نبت شعرهُ وارسلهُ الى ميدان القتال . فلما وصل العبد حلق القائد شعرهُ وقرأ رسالة الملك . وكان ملوك قرطجنة يكتبون الرسائل السرية على الواح من خشب دقيقة ويطلونها بمادة شمعية صلبة فحينما يصل اللوح الى من ارسل اليهِ يذيب الشمع عنهُ فتظهر الكتابة

الكتب وشكلها عند الاقدمين

كانت الكتب عند الاقدمين ادراجاً تلف لفّ ولذلك دعي المجلد عند اكثر الافرنج Volume اي ملفّاً من الكلمة اللاتينية Volvere التي معناها لف . وكان النساخ يكتبون على قطع ورق البردي والرق متفرقة فاذا اتموا نسخ الكتاب اخذوا تلك القطع ووصلوها بعضها ببعض الواحدة بجانب الاخرى او باسفلها فعلى الطريقة الاولى ينتقل القارئ من آخر سطر في الصحيفة الاولى الى اول سطر في الصحيفة التي تليها . واما على الطريقة الثانية فيقرأ الكتابة تباعاً حتى ينتهي الى آخر الملف

وعند الانتهاء من وصل قطع الورق او الرق بعضها ببعض يجعل في طرفها اسطوانة

من خشب لتلف عليها او يجعل في كل من طرفيها اسطوانة ويلف قسم من الدرج على كل من الاسطوانتين . ويحمل القارئ الملف بكلتا يديه فكلما فرغ من قراءة صحيفة لفها على احدى الاسطوانتين وادار الاسطوانة الاخرى ناشراً الصحيفة التالية وهكذا الى انتهاء الكتاب

وكانت الاسطوانات تتخذ احياناً من العاج او الفضة او الذهب تبعاً لاهمية الكتاب وثروة مالكه . وغالباً كانوا يكتبون اسم الكتاب واسم مؤلفه على رأس الاسطوانة ويحفظون كل كتاب في صندوق من الخشب او كيس من الجلد واذا كان مؤلفاً من بضعة ملفات حفظت كلها في صندوق واحد وكتب على ظاهره اسم الكتاب وعدد ملفاته

وكانوا يدهنون الصناديق والعلب من الخارج والداخل بصمغ الصنوبر وغيره لطرد الجرذان ومنع السوس والحشرات من قرض الكتب واتلافها وقال بلبني « اذا لفت الكتب بجلود الضباع لم تدنُ منها الحشرات والجرذان » وذلك غير صحيح فرد عليه احد النساخ قائلاً « ان الحيوانات لا تحترم جلود ملوكها »

وكانت ملفات الكتاب الواحد في بعض المؤلفات الكبيرة تزيد على العشرين والثلاثين . فالياذة هوميروس واوديسيته كانتا في ٤٨ ملفاً في بعض النسخ . وبلغت ملفات تاريخ تيتليف الروماني في بعض النسخ مائة واربعين اما طول الملف فيختلف ومن الملفات ما بلغ طوله خمسين متراً

ولم تظهر الكتب بالشكل المعروف الآن الاَّ في بداءة القرن الاول للميلاد على عهد طيبار يوس قيصر . غير انها لم تكثر الاَّ في القرن الرابع وقد تمكن النساخ بها من الكتابة على وجهي الرق او الورق عوضاً عن الكتابة على وجه واحد منهُ فقط . وعند الانتهاء من كتابة الكتاب كانوا يضدون اوراقهُ بعضها فوق بعض ويجمعونها ضمن دفتين من الخشب بعد لفها بالرق او القماش

الرسائل والجرائد والاعلانات

واما الرسائل فكانت تكتب على ورق البردي او الرق ثم تلف وتربط بشريط من الحرير او الكتان وتختم بالشمع الاحمر على عقدة الشريط ويكتب العنوان على ظاهر الملف ويرسل الى صاحبه

وعرف القدماء طريقة نشر الاعلانات الكبيرة على جدران الشوارع . وفي مكاتب اوربا كثير من هذه الاعلانات في متحف اللوفر اعلان كبير من ورق البردي مكتوب فيه

بحروف كبيرة هذه الكلمات «مكافأة حسنة تعطى لمن يرد عبدين آبقين فرًّا من بيت سيدها في الاسكندرية» ويليها اسم صاحب الاعلان

وقد اجمع المؤرخون على انهُ كان للامبراطورية الرومانية في رومية جريدة رسمية لنشر الاخبار والاوامر والحوادث العمومية وكانت تنشر باللاتينية واليونانية ويكتب منها الوف من النسخ توزع على العظماء واعضاء مجلس الشيوخ وترسل الى حكام الاقاليم وكانوا يسمون هذه الجريدة ديورناله Diurnale . وكانت تنشر غالباً خطب اعضاء مجلس الشيوخ المهمة والجرائم الشهيرة والعجائب والاعياد الدينية والسياسية وحوادث الزواج والمواليد والوفيات على مثال الجرائد اليومية عندنا

ولبثت هذه الجريدة تنشر في رومية مدة خمسة قرون الى ما بعد انقسام الامبراطورية وفي مناحف اوربا نسخ منها افادت كثيراً في معرفة تاريخ الرومان

النسخ والناسخ

كان في بني اسرائيل فئة من الناسخ من سبط لاوي عملهم نسخ التوراة وكان لهم كرامة كما كان لامثالهم عند غير اليهود من الامم . اما عند الرومان فكانت مهنة النسخ بيد الاسرى والعبيد والارقاء وكان الاسياد يفاخرون بكثرة عبيدهم الذين يجيدون الخط ويعتقون من فاق غيرهُ في هذه الصناعة ولذلك غلب على هؤلاء الناسخ اسم العبيد المعتقين Librari ومن هذه الكلمة اسم الكتاب في اللغة اللاتينية Liber . واذا اريد كتابة نسخ كثيرة من الكتاب الواحد التي بناسخ كثيرين وقام فيهم قارئ على الكتاب عليهم

وقد شكى شيشرون في احدى رسائله من ان اكثر الكتب في اللغة اللاتينية لم تكن تكتب بجلاء واعتناء حتى كان بعضهم يضطر الى الاستعانة بالناسخ لقراءة ما كتب وكان مرسيال الشاعر الروماني يذيّل كتبهُ بالعبارة التالية «ارجو المعذرة من القارئ اذا رأى خللاً او ابهاماً في الخط فالذنب على الناسخ لانهُ يكتب ولا يفهم ما تسطرهُ انامله»

والكتب القديمة التي وصلت الينا فيها كثير من الاغلاط والجمل المشوشة المبهمة وقد وقعت اغلاط تاريخية كثيرة بسبب ذلك وقال العالم لالان «ان اغلاط الناسخ الاقدمين اكثر من رمل البحر» واكثر هذه الاغلاط ناتجة من عدم وضع الفواصل بين الجمل واتصال السطور بعضها ببعض

واما في القرون الوسطى فكان اكثر الناسخ من الرهبان واليهم يرجع الفضل في حفظ

أكثر الكتب القديمة . وكان لا يجوز نسخ الكتب المقدسة والدينية الاَّ لكتاب مشهود لهم بالدراية وجودة الخط مع العلم بقواعد الدين واللاهوت . وظلت الكنائس والاديرة مدة طويلة خزائن للعلم حفظت فيها الكتب القديمة من الضياع والتلف في عصور الحروب والجهالة وقد فاق الرهبان البندكتيون غيرهم في شدة حرصهم على الكتب وكانت اديرتهم ملأى بها وكانوا كلهم كتاب وعلماء ونساخ . وهم الذين حفظوا اكثر الكتب اليونانية واللاتينية والعربية وغيرها من الكتب القديمة التاريخية والعلمية والدينية . وقال ترتيامرس « ان اديرة الرهبان البندكتيين كانت مدة خمسة قرون معهداً للعلوم ونسخ الكتب فاذا دخلت ديراً من اديرتهم رأيت بعض الرهبان يهيئون الورق والرقوق تنظيفاً وصقلاً وقصًّا وبعضهم يبرون الاقلام وغيرهم يركبون الحبر من اسود واحمر . واما قاعة النساخ فترى فيها الكتبة والمصححين والقارئين وترى في غيرها المصورين والمزخرفين والمجلدين

بائعو الكتب

كانت تجارة الكتب رائجة في العصور القديمة كما هي الآن وخصوصاً في رومية والاسكندرية الاولى مركز الحكم والسلطة والثانية مدينة العلوم والمعارف والآداب اليونانية . وكان لبائعي الكتب حوانيت في الاسواق يؤجرون فيها الكتب للقراء فضلاً عن بيعها فقد كتب مارسيال الى صديقه لوراكوس « لِمَ تشتري الكتاب بثمن باهظ وفي وسعك ان تستعيره من مكتبة اتركتوس التي في الفوروم القيصري باجرة زهيدة لا تتجاوز خمسة دينيوس » (نحو خمسة فرنكات بمعاملة هذه الايام) وقال العالم اولون جيل . ان هذه المكاتب كانت مجتمعاً للعلماء والشعراء والعظماء وناديًا لمطالعة الكتب ومشتراها واستعارتها وكان فيها كراسٍ ومقاعد ومناضد لنشر المخطوطات وقراءتها

وانتشرت الكتب في عصر الرومان انتشاراً عظيماً وكان الملوك والعظماء والامراء يفاخرون بكثرة كتبهم وقد قال فيهم سينيكا « ماذا تنفع هذه الكتب المكدسة بعضها فوق بعض عند هؤلاء العظماء والملوك الذين يفاخرون باقتنائها وقلما ينتج احدهم ملفًّا منها في حياته كلها فهي عندهم ادوات للزينة لا لاكتساب العلوم »

ديتري نقولا